اجار علي الظاهر في بلادهِ فلما علم محمد باشا بذلك بعث رجلاً من اخصائهِ اسمهُ علي اغا القبصرلي متظاهرًا بعداء الوالي فلما وصل اليهِ قتلهُ اغتيالاً فبعث الباشا برأسهِ الى دار السعادة

اما عثمان بن ظاهر فاقام في عكاء سنةً بمنصب شيخ البلد ثم عزلهُ حسن باشا واخذهُ الى الاستانة فاقام ثمة على خدمة الدولة نحوًا من ست سنين على غير منهاج ابيهِ فسرَّت الدولة بهِ وارسلت من قبلها مباشرًا مخصوصًا سنة ١١٩٦ الى صيداء فاخذوا عيالهُ منها الى بروسه وكانت عدتهم ثلاثين نفرًا ونال رتبة ميرميران ومنصب خداوندكار مؤبدًا على ان يقوم باود عياله واخوتهِ وان يخصص من دخلهِ ثلاثة آلاف غرش في السنة لاخيهِ الشيخ احمد (روى ذلك جودت باشا ونوفل نوفل)

وخلَّف علي طفلين نبغ احدهما شاعرًا مشهورًا اسمهُ فاضل بك وكذلك نبغ من ابناء الشيخ احمد شاعر مجيد اسمهُ يوسف خالص بك ذكرهُ جودت باشا ايضًا

ثم تبعثرت الاسرة بكرور الايام وتقلبات الدهور واحط الدهر على بعضهم حتى اضطرت بعض مخدرات هذا البيت الى التسوُّل على ما قال الامير حيدر في تاريخهِ فسبحان من بيدهِ الامر . انتهى

جرجي يني

الاخصاء

اذا اجال المستبصر طرفهُ فيما انتهى اليهِ ارتقاء العلم على اختلاف ضروبهِ في بلاد الغرب وقاسهُ بما وصل اليهِ في بلاد الشرق من الاضمحلال بعد ان كان في اعلى درجات الارتقاء على عهد الخلفاء الأمويين بالاندلس والفاطميين بمصر والعباسيين ببغداد لا يُتمّ في الغالب ان ينسب ذلك التميّز للاخصاء وحو تعلم علم واحد واختصاص كل طائفة من الناس بما تنصرف وجهتهم اليهِ ويرون الخير في خدمتهِ من اسباب العلم ومقوّمات الحضارة . وقد يظن بعض من لا يعرف دروس الغرب واساليب القاء العلوم في مدارسهِ المتنوّعة ان كل من اشتهروا وتميّزوا بفنٍ ونالوا حظًا وافرًا من علم نافع لا تتعدّى معارفهم حدود ما هم بسبيلهِ فالفيلسوف لا يحسن بزعمهم الانشاء والمنشئ لا يعرف التاريخ والطبيعي لا يحسن الرياضيات والالهي لا يذوق الاجتماعيات والسياسي لا يدرك الاقتصاد ولكن ليس الامر على ما يذهبون اليهِ

سألتُ يومًا احد المبرّزين في علوم الاوائل والاواخر من المشارقة لِمَ كان الاخصاء في الغرب نافعًا ولا يتأتى الانتفاع بنيرهِ ولِمَ لا نجد في بلادنا اهل إخصاء فقال التخصيص لا يظهر

الاَّ بعد التعميم فان الناس في اوربا يقرأون على ترتيب خاص يقضي على الداخل الى المدارس ان يتعلم كل العلوم اللازمة لهُ في حياتهِ حتى اذا وافق بعضها مزاجهُ او ميلهُ ينصرف اليهِ جملة فيبرز فيهِ فالاختصاص يأتي من ترقي العلم ليس الاَّ

قال وهكذا كان شأن سلف هذه الامة العربية ايام كانت دروس العلم حافلة وحلقات المعارف منظمة فقد رأينا مثل ابن السرّاج المتوفَّى سنة ٣١٦ نحويًّا فيلسوفًا مع انهُ لا علاقة بين العلمين والسيرافيّ المتوفى سنة ٣٦٨ من ائمة النحو وشارح كتاب سيبويه ذا يد طولى في الفلسفة وكان الفلاسفة يرجعون اليهِ في علمهم. ورأينا الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ يستدعي الى بغداد ابا عليّ الفارسي من مشاهير النحاة ليزورهُ فيستفيد منهُ مع ان الصاحب عالم كبير من اهل العلم. والرمانيّ المتوفى سنة ٣٨٤ احد فلاسفة العراق كان نحويًّا متكلمًا وهكذا شأن كثير من اضراب هؤلاء ممن نقل عنهم ابو حيان التوحيدي المتوفى على رأس الاربعمائة مذاكراتهم في مقابساتهِ

ثم نصَّ عليّ ما رواهُ ابن ابي اصيبعة في ترجمة الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ احد فلاسفة الاسلام وهو الذي كتب المجلدات الممتعة في الطبيعيات والرياضيات والالهيات والطب قال كان الرئيس جالسًا يومًا من الايام بين يدي الامير علاء الدولة من امراء ما وراء النهر وابو منصور الجباني حاضر فجرى في اللغة مسئلة تكلم الشيخ فيها بما حضرهُ فالتفت ابو منصور الى الشيخ يقول انك فيلسوف وحكيم ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها فاستنكف الشيخ من هذا الكلام وتوفّر على درس كتب اللغة ثلاث سنين واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف ابي منصور الازهري فبلغ في اللغة طبقة قلَّ ان يتفق مثلها وانشأ ثلاث قصائد ضمنها الفاظًا غريبة من اللغة وكتب ثلاثة كتب احدها على طريقة ابن العميد والآخر على طريقة الصابي والآخر على طريقة الصاحب وامر بتجليدها واخلاق جلدها ثم اوعز الامير فعرض تلك المجلدة على ابي منصور الجباني وذكر انا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وانت الصيد فيجب ان تتفقدها وتقول لنا ما فيها فنظر فيها ابو منصور واشكل عليهِ كثير مما فيها فقال لهُ الشيخ إن ما تجهلهُ من هذا الكتاب فهو مذكور في الموضع الفلاني من كتب اللغة وذكر لهُ كثيرًا من الكتب المعروفة في اللغة كان الشيخ الرئيس حفظ تلك الالفاظ فيها وكان ابو منصور مجزوفًا فيما يوردهُ من اللغة غير ثقة فيها فقطن ان تلك الرسائل من تصنيف الشيخ وان الذي حملهُ عليهِ ما جبههُ بهِ في ذلك اليوم فتنصَّل واعتذر اليهِ. ثم صنف الشيخ كتابًا في اللغة سماهُ لسان العرب لم يُصنَّف في اللغة مثلهُ ولم ينقلهُ الى البياض حتى توفي

فبقي على مسوّدته لا يهتدي احد الى ترتيبه

قلت ولو لم يكن الرئيس درس اللغة في صباهُ حقّ دراستها امكنَّر عليهِ ان يكون في ثلاث سنين من اعلم الناس بها واذا راجعنا سِيَر الرجال قديمًا وحديثًا نرى مثلهُ افرادًا ليسوا بقلائل في كل امة وبلد فقد كان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ عالمًا في كل فن وكان الحجة الثبت في كل ما كتب . وكان فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ عالمًا بالادب والطب والشريعة والفلسفة " يهاجر اليهِ الناس من كل ناحية على اختلاف مطالبهم في العلوم وتفننهم فيما يشتغلون بهِ فكان كل منهم يجد عندهُ الغاية القصوى فيما يرومهُ منهُ " . وكان ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ اوحد في علم الفقهِ متميزًا في الطب اوحد في الفلسفة ولخص كتب ارسطاطاليس وجالينوس . وكان عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ فردًا في العلوم العقلية والنقلية كافة غلب عليهِ الادب اولاً ثم الفلسفة والطب تشهد لهُ بذلك تآليفهُ

فاق مثل هؤلاء الاعلام بما تهيأ لهم من النظام المتَّبع والاسلوب الحميد الذي يشفي لكل شعب عرف معنى العلم وطرق تحصيلهِ . وربما كان ميل الفرد لعلم دون آخر على درجات تختلف باختلاف التلقي والبداءة فيهِ . ومن حصلت لهُ ملكة في فن او صناعة ومرن عليها واشتد ساعدهُ فيها يصعب عليهِ ان يتقن غيرها الاَّ قليلاً اما الاخصاء في فرع من فروع العلم فلا يتأتى الاَّ بعد النظر بالجملة في اكثر الآلات والادوات التي لا غنية لمن يريد ان يوسم بالعلم بدونها . والمُثَقِّف وهو الذي ينتف من العلم شيئًا ولا يستقصيهِ قلَّ ان ينجح في البلاد الراقية وهو مقبول عند المشارقة الآن لضعف العلوم بين ظهرانيهم وقد يستفيد صاحبهُ في الماديات اكثر مما يستفيد المخصي اي المتعلم علمًا واحدًا مثال ذلك الكاتب في العربية فانهُ لا يرتزق الاَّ اذا كتب في كل موضوع قليلاً او كثيرًا واذا اراد الاخصاء فقد لا يعيش من صناعتهِ وما اشبههُ بالشمعة تحرق نفسها لتضيء لغيرها . قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة من اراد ان يكون عالمًا فليطلب فنًّا واحدًا ومن اراد ان يكون اديبًا فليتفنن في العلوم

نعم لا يطلب من العالم بالنحو والصرف والبيان والمنطق مثلاً ان يكون من النوابغ في الانشاء وانما يعاب عليهِ كثيرًا ان يملأ رأسهُ بالقواعد حتى اذا جاء ليطبقها ويستعملها ينقطع ولا يحير جوابًا ولا يكتب كتابًا كما لا يُرجى من الباحث في الاديان ان يكون راسخًا في سِيَر الافلاك وانما يراد منهُ ان يكون لهُ نوع من المشاركة في هذا العلم حتى يعرف ما يقول في التوقيت والاهلَّة ولا يطالب المؤرخ ان يكون متمكنًا من العلم الطبيعي والرياضي بل عليهِ ان تحصل لهُ ملكة قليلة في معرفتهما وهكذا الحال في علوم البشر كافة

قال ابو حاتم السجستاني قدم علينا عامل من اهل الكوفة لم ارَ في عمّال السلطان ابرع منهُ فدخلت عليهِ مسلّمًا فقال يا سجستاني مَنْ علماؤكم بالبصرة قلت الزيادي اعلمنا بعلم الاصمعي والمازني اعلمنا بعلم النحو وهلال الرازي افقهنا والشاذكوني اعلمنا بالحديث وانا أُنسب الى علم القرآن وابن الكلبي اكتبنا للشروط . فقال لكاتبهِ اذا كان غدًا فاجمعهم لي فجمعنا فقال ايكم المازني فقال ابو عثمان انا فقال هل يجزى في كفارة الظهار عتق عبد اعور فقال المازني انا صاحب عربية لست بصاحب فقه فقال يا زياد كيف تكتب بين رجل وامرأة خلعها زوجها على الثلث من صداقها فقال ليس هذا من علمي هذا من علم الشاذكوني فقال لهُ ياشاذكوني من قرأ الاّ انهم يثنوني صدورهم فقال ليس هذا من علمي هذا من علم ابي حاتم فقال لي يا ابا حاتم كيف تكتب الى امير المؤمنين تصف فيهِ خصاصة اهل البصرة وما اصابهم في الثمرة من الجوائح وتسأل النظر لهم فقلت انا صاحب قرآن لست بصاحب بلاغة وكتابة . فقال اقبح بالرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف الاّ فنًّا واحدًا حتى اذا سئل عن غيرهِ لم يحز فيهِ لكن عالمنا بالكوفة الكسائيّ لو سئل عن هذا لاجاب

ومثل هذا الاخصاء يقع في ايامنا لطائفة كبيرة من العلماء والفضلاء في بلاد الافرنج فقد صحبتُ احد علماء الحقوق من الالمان وكان هبط مصر لتعلم العربية فكنت اذا حدثتهُ في الموضوعات الاجتماعية يتبرّم ويجيب اجوبة متقطعة لا تنبئ بتجر ولا بقلة وقوف مع انهُ درس في اعظم كليات المانيا على الاصول الحديثة وناهيك بمن يدرس في مدارس هذه المملكة فانهُ لا يُعد متعلمًا في الغاية عند اهل اوربا انفسهم الاّ من قضى اعوامًا في مدارس الالمان كما لا يُعدُّ متمدنًا عندهم الا من زار باريز ورأى حضارة اهلها وازيائهم واهوائهم . واجتمعت مرارًا كثيرة باحد اهل الاخصاء في الآثار من الفرنسيس فكنت كلما باحثتهُ في احوال الشعوب والممالك يناقش مناقشة مَن لا يعلم الاّ ما هو آخذ نفسهُ بهِ من دراسة آثار الشام

ونصارى القول ان الاخصاء يتأتى حصولهُ اذا نظمت طريقة العلم وساعدت البيئة والمحيط على انتفاع المشتغل والمشتغل لهم بثمارهِ الغضة . وقد جمع بعض الحكماء سرّ الاخصاء في قولهِ اقصد من اصناف العلم الى ما هو اشهى لنفسك واخفّ على قلبك فان تفاذك فيهِ على حسب شهوتك لهُ وسهولتهِ عليك . وقال يحيى بن خالد لابنهِ عليك بكل نوع من العلوم تخذ منهُ فان المرء عدوّ ما جهل وانا اكره ان تكون عدوّ شيء من العلم وانشد

تفنَّ وخذ من كل علم فانما يفوق امروء في كل فن لهُ علمُ
فانت عدوٌّ للذي انت جاهل بهِ ولعلم انت تتقنهُ سلمُ

وقال آخر يشكو صعوبة التحقيق في العلم

برَّح بي ان علوم الورى شيئان ما ان فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيلهُ لا يفيد

دمشق الشام محمد كرد عليّ

احدى غوامض التاريخ

من يطالع تاريخ اوربا في القرن السابع عشر والثامن عشر ويطلّع على ما برز فيها من نور العلم والفضل ثم يراجع على ما كان يجري في قصور ملوكها وامرائها من المنكرات لا يعجب من قيام كرومول في انكلترا وحدوث الثورة في فرنسا بل يعجب من احتمال النفوس للقهر قرناً بعد آخر من غير ان تزهق . ثم اذا قاس الامم الغربيَّة بالامم الشرقيَّة لم يتوقع ان يرى في اوربا عشر ما يراهُ فيها الآن من الارتقاء فاننا نحن ابناء المشرق كانت حالنا منذ الف عام اصلح من حال اوربا منذ مئتي عام وقد كرَّت القرون ولم نرتقِ قيد شبر بل المرجح اننا زدنا انحطاطاً حتى ماثلت حال كثير من ممالكنا الآن حال اوربا في القرن السابع عشر . ولعلَّ كاتب تاريخ القرن التالي يكتب من سجون الاستانة عاصمة مملكتنا ما كتبهُ الفرنسويون من سجن باريس عاصمة مملكتهم وهاك طرفاً من ذلك

في الثامن عشر من شهر ستمبر سنة ١٦٩٨ فتح باب الباستيل سجن باريس المشهور في التاريخ ليمرَّ عليهِ المحافظ الجديد سان مارس وكان راكباً مركبة ستائرها مدلاَّة وحولها ثلة من فرسان الحرس الملكي والى جانبهِ كهل تلوح عليهِ لوائح النبل ولكنَّ وجههُ كان مغطى ببرقع من المخمل الاسود مثبت حول رأسهِ بابازيم من الحديد . وكانا قادمين من سجن سان مرغريت في جنوب فرنسا الذي كان سان مارس محافظاً لهُ مدة سنين طويلة

وكان الملك لويس الرابع عشر يعدُّ سان مارس هذا مقدام السجانين في مملكتهِ فانهُ وقف نفسهُ على اتقان خدمتهِ منذ كان عمرهُ خمساً وثلاثين سنة فنال نعمة في عيني مولاهُ وصار من اخصِّ المقربين اليهِ . وقد ضاعف همتهُ الآن في المحافظة على السجين وبالغ في الاحتياط عليهِ فكان ينام بجانبهِ ويجلس معهُ على الطعام وبجانبهِ فردان . اما السجين فلم يكن ينبس ببنت شفة بل كان يجلس دائماً وظهرهُ الى جهة النور ولم يحاول مكالمة انسان ولا بالى باهتمام الحرس والناس بمشاهدتهِ في المحطات التي كان يقف ليبيت فيها